رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الأول

مقدمة في منهج إحياء الأمة

المطلب الأول

المنهج موجود وليس بمفقود

المنهج الذي يقيم الأمة الإسلامية منهج واضح المعالم موجود بوضوح في الكتاب والسنّة وسيرة الرسول ﷺ، وليس بمنهج مفقود يحتاج إلى اختراع وإيجاد.

إن الذين يريدون اختراع منهج جديد لإحياء الأمة الإسلامية يظلمون أنفسهم، ويظلمون أمتهم، ويطيلون المسار على غير هدى، لقد حكم الله على هذه الأمة أنها لا تجتمع على غير الدين الإسلامي، وهذا التاريخ شاهد، فإن الأمة العربية والأمة الإسلامية لم تجتمع على غير الرابطة الدينية الإسلامية، وأخبرنا ربنا بأن هذه الأمة لا يجتمع قلوب أصحابها على غير الإيمان، ولو أُنفق

في سبيل ذلك كل ما في الأرض من مال ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٣] إن المنهج الذي يقيم هذه الأمة ويحييها موجود في القرآن الكريم، وقد سلكه الرسول ﷺ ، وأقام عليه أمته، وقد فتح قلوب العباد بتوجيههم إلى رب العباد، وجعلهم أمة أخلصت دينها للواحد الأحد، بعيداً عن الأصنام والأوثان والصلبان، وربط فيما بين أتباعها برباط الإيمان، وألزمها بطاعة الرسول ﷺ ، ثم بخلفائه من بعده، وأنشأ الرسول ﷺ جيشاً واحداً، حارب به الشرك وأهله، وكوّن الأمة الواحدة وقد هداها إلى التعارف فيما بينها بالأنساب والعشائر والشعوب، ولكن التفاضل فيما بينها إنما يكون بالدين والتقوى.

إن معرفة هذا الأصل في غاية الأهمية، فالواجب علينا أن نتعرف على الطريق الذي يبني مجد الأمة الإسلامية، عبر نصوص القرآن، ونصوص الأحاديث الصحيحة، وعبر سيرة الرسول ﷺ ، فبناء الأمة على الطريق الصحيح جزء من الدين الصحيح، وهذا الطريق هو الذي سلكه الداعية الرباني الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ففتح الله له القلوب، واجتمعت عليه النفوس.

المطلب الثاني
البناؤون الكبار للأمم على مرّ التاريخ الإنساني

البناؤون الكبار الصالحون في تاريخ البشرية المديد هم الرسل والأنبياء وأتباعهم على إثرهم، الذين اهتدوا بهداهم وساروا مسارهم. والرسل والأنبياء خيرة الناس على مستوى البشر في العقول والأجسام، وكذلك الرجال العظام الذين ساروا مسارهم، كما قال تعالى في وصف الرجل الذي اختاره لقيادة بني إسرائيل، ورفع به ما أصابهم من بلاء وخنوع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقد أطال القرآن، وأبدى وأعاد في الحديث عن بناة الأمم العِظام من الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله واصطفاهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٣٣]. وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج:٧٥] وقال مثنياً عليهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص:٤٥-٤٨]

وأفضل رسل الله وأنبيائه أولو العزم، وهم الخمسة الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب:٧] وسماهم أولي العزم في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

والرسل والأنبياء أفضل البشر، وأبو بكر رضي الله عنه أفضل رجل بعد الرسل والأنبياء، فعن أحمد من حديث أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت الشمس على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي». [فضائل الصحابة، ٥٠٨].

وقد صنع الله رسله وأنبيائه بما كان يوحيه إليهم، فمع كونهم بشر من ذرية آدم عليه السلام، إلا أنهم تلقوا وحي الله إليهم، وصاغوا أنفسهم به على النحو الذي يريده الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

وقد صنع الله رسله وأنبيائه على عينه، كما قال عز جل في نبيه موسى عليه السلام ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩]

وقد أقام الله رسوله جبريل معلماً لأنبيائه ورسله، كما قال سبحانه في عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:٥-١٦].

ولا شك أن الله يختار من عباده من هو أفضلهم وخيرهم، وفيه من الصفات الرائعات ما الله به عليم، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] وجميع الأنبياء أقوياء أمناء على ما كلفهم الله تعالى به، كما قالت ابنة الرجل الذي تزوج موسى عليه السلام ابنته في موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

وقد كان الأنبياء في بني إسرائيل كثيرون، كلما هلك نبي قام نبي، كما في الحديث عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول،

أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم» [البخاري:٣٤٥٥، ومسلم:١٨٤٢].

أما هذه الأمة فليس هناك نبي بعد نبينا محمد ﷺ، ولكن الخلفاء يقومون بسياسة الناس من بعده، وقد دلنا الرسول ﷺ كيف نفعل إذا جاء من ينازع الخليفة الأول، فقال في الحديث السابق: «فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

المطلب الثالث
محمد ﷺ أعظم البناة على مرّ التاريخ الإنساني

أعظم من بنى أمة هو الرسول الأعظم محمد ﷺ، ورسولنا ﷺ هو الرسول الذي دعا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل الله أن يبعثه في آخر الزمان عندما كانا يقيمان القواعد من البيت في قولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

وقد فقه رسولنا ﷺ الدين، الذي أنزله الله إليه، وأقام نفسه عليه، ودعا قومه إلى هذا الدين وتلا عليهم آيات الله، وعلمهم الكتاب والحكمة، وزكاهم، وصنع الله به أمة الإسلام التي انتشرت في أرجاء الأرض.

قام خلفاء كثيرون بعد الرسول ﷺ، فأقاموا الأمة على منهج سواء، وعمقوا الدين في قلوب العباد، وحكموا شريعة الله في أعمال العباد، وجاهدوا في سبيل الله كالخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسار على دربهم الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، وكان الخلفاء من بني أمية وبني العباس والدولة العثمانية وغيرهم يقتربون ويبتعدون عن المنهج الحق بنسب متفاوتة، ومنهم من كان يبتعد كثيراً، ثم ضعفت الخلافة كثيراً منذ قرنين من الزمان، وأخيراً زال الخليفة وزالت الخلافة في تركيا، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى دول كثيرة، وابتعد كثير من الحكام عن الشريعة، وحكّموا القوانين الوضعية في الديار التي يحكمونها، وقد كان بعض العلماء الذين نبغوا في علم الشريعة يتصلون بالحاكم في زمانهم، ويرشدونهم للتي هي أقوم في حكمه، وكان بعض الحكام يستجيبون للتقويم والتوجيه والإرشاد.

ومن أهل العلم الذين كان لهم أثر كبير في حكامهم الإمام العلاّمة شيخ الفصحاء والبلغاء أبو المجد علي بن الحسن بن البيساني الشهير بالقاضي الفاضل المولود في سنة ثنتين وخمسمائة والمتوفى في سنة ست وتسعين وخمسمائة، فقد كان له أثر عظيم على صلاح الدين الأيوبي، قال ابن كثير: «لما استقر الملك لصلاح الدين

obeikandl.com

بمصر جعل القاضي الفاضل كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه».

[البداية والنهاية: ١٣/ ٢٤].

وذكر ابن كثير أن صلاح الدين الأيوبي عندما مرض مرضاً شديداً في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة في بلاد حرّان، نذر لئن شفاه الله من مرضه، ليصرفن همّته كلها إلى قتال الفرنج، ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً،وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس، ولو صرف في سبيل الله جميع ما يملكه من الأموال والذخائر، وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، لأنه نقض العهد، وتنقص رسول الله ﷺ، وذلك أنه أخذ قافلة ذاهبة من مصر إلى الشام، فأخذ أموالهم، وضرب رقابهم، وهو يقول: أين محمدكم؟ دعوه ينصركم.

قال ابن كثير معقباً على قوله هذا: «وكان هذا النذر كله بإشارة القاضي الفاضل، وهو أرشده إليه، وحثّه عليه، حتى عقده مع الله عز وجل، فعند ذلك شفاه الله وعافاه من ذلك المرض الذي كان فيه، كفارةً لذنوبه».

وذكر ابن كثير أن مما كتبه القاضي الفاضل إلى المظفر عمر قوله له: «وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر غضبة جديدة،

والعزمة ماضية حديدة، والنشاط إلى الجهاد، والتوبة لرب العباد، والجنة مبسوطة البساط، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج بسمِّ الخياط». [البداية والنهاية: ١٢/ ٣١٢].

ومن الذين كانوا ينصحون الحكام، ويؤثرون فيهم، ويدلونهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وقد كان لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يخاف إلا الله تعالى، وقد اجتمع شيخ الإسلام بغازان ملك التتار، وكان عازماً على غزو دمشق والفتك بأهلها، فقصده ابن تيمية، وقام له مقاماً عظيماً مهيباً، ولامه لوماً شديداً، فهو يدعي الإسلام، ومع ذلك فإنه يقتل المسلمين، ويستولي على أموالهم وبلادهم، بينما كان أبوه وجدّه كافرين، ولم يفعلا فعله. [راجع: حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد بهجت البيطار، ص١٣].

obeikandl.com